﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣﴾ [الذاريات: 20 - 23]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

مخلوقاتُ الله تعالى العلويَّةُ والأرضيَّة تشهَدُ بوحدانيَّته وقُدْرَته على البعث

لمّا دلَّ إقسامُه ﷻ بالسَّماء وما قَبْلها من الذّاريات على ما له في العُلويّات من الآيات، إلى أن خَتَم بالأموال الَّتي تُنبتها الأرض، فكان التَّقدير: ففي السَّماوات آيات للمؤمنين دالّات على عظمته واستحقاقه للعبادة بغاية الخضوع رغبًا ورهبًا؛ عطف عليه قوله: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من الاختلاف بالمعادن الكثيرة المُتباينة مع اتِّحاد أصلها والنَّبات والحيوان والجماد والبَرِّ والبحر، وغير ذلك من الأسرار الدّالَّة على الفاعلِ المُخْتار[1]، فأشار تعالى إلى أنَّه لا حاجة إلى الخَرْص والتَّخمين في باب الاعتقادات؛ لِكثرة الآيات الواضحَةِ، بقوله سبحانه: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِّلۡمُوقِنِينَ﴾: أصلُ (يقن) يدُلُّ على السُّكون والظُّهور، أو الثُّبوت والاستقرار والدَّوام، ومنه: أمر يقين، أي: ثابت مستقرٌّ[3]، واليَقَنُ واليَقينُ: زَوالُ الشَّكِّ، يُقالُ: يَقِنْتُ، واستيقَنتُ، وأيقَنتُ[4]، وهو التَّحقُّق والعِلْم الَّذي لا شكَّ معه، يُقالُ: يقن الأمرُ يقنًا، وأيقنه، وأيقن به، وتيقَّنه؛ إذا عَلِمه، وتحقَّقه كلَّه[5]، وضِدُّه: الشَّكُّ

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 456.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 39.
(3) الراغب، المفردات: (يقن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يقن).
(5) الجرجاني، التعريفات، ص: 259، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 68.

والرَّيب، ويأتي اليقين بمعنى التَّأكُّد، يُقال: أيقن الخبَر، أي: تأكَّد منه، ومن معانيه أيضًا: الاطمئنانُ، والوضوحُ[1]، والمُرادُ بالإيقانِ في الآية: العِلْمُ الَّذي لا يتردَّد فيه صاحبُه[2]، والمقصود بهم الموحِّدونَ الَّذين سلكوا الطَّريق الموصل إلى معرفة الله تعالى، فهم نظّارون بعيونٍ باصرةٍ، وأفهامٍ نافذةٍ[3].

2) ﴿تُبۡصِرُونَ﴾: أصلُ (بصر) يدلُّ على وضوحِ الشَّيءِ، يُقال: بَصُرَ الطَّريقُ، أي: استبانَ ووَضُحَ، والبَصيرَةُ: البُرْهانُ[4]، والبَصيرُ والمُبْصِرُ: الناظِرُ لِغَيْرِه، وضِدُّهُ الأعْمى، ويأْتي البَصَرُ أيضًا بِمَعنى: العِلْمِ والإدْراكِ، وهيَ الرُّؤْيَةُ بالقَلْبِ، كَقَوْلِكَ: بَصُرْتُ بالشَّيءِ؛ إذا عَلِمتَهُ، وأدْرَكْتَهُ، والبَصيرَةُ: قوَّةُ الإدْراكِ والفِطْنَةُ والعِلْمُ، والجَمعُ: بَصائِرُ[5]، والإبْصارُ في الآية مُستَعارٌ للتَّدَبُّرِ والتَّفكُّرِ، أي: كيف تَتركونَ النَّظرَ في آياتٍ كائنةٍ في أنفُسِكم[6].

3) ﴿رِزۡقُكُمۡ﴾: أصلُ (رزق) يدُلُّ على عَطاءٍ لِوَقْتٍ، ثُمَّ يُحمَلُ عليهِ غَيرُ المَوْقوتِ[7]، والرِّزقُ: هو كلُّ ما يُنتَفع به من مالٍ ونحوه، والجَمعُ: أرزاقٌ[8]، والرِّزْق المذكورُ في الكتابِ والآثارِ: ما مَنحَه الله من حَلالٍ أو حرامٍ عند أهلِ السُّنَّة، وغيرُهم يخصُّه بالحَلالِ، واللُّغةُ لا تَقتَضيه[9]. والرّازقُ: اسم من أسماءِ الله الحسنى، ومعناه: المُفيض على عباده، والمُنعم عليهم بإيصال حاجَتِهم إليهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾ [الذاريات: 58][10]، والرِّزق في الآية: اسمٌ لِما يُنتَفعُ به، والمُرادُ به: المَطَرُ الَّذي تَحْمِلُهُ السُّحُبُ[11].

4) ﴿تُوعَدُونَ﴾: أصلُ (وعد) يدُلُّ على تَرْجيَةٍ بقولٍ، يُقالُ: وعَدْتُهُ أعِدُهُ وعْدًا، ويكونُ

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (يقن).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 351.
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (يقن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بصر).
(5) ابن منظور، لسان العرب، وإبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط: (بصر).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 353.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رزق).
(8) ابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهري، الصحاح: (رزق).
(9) القاضي عياض، مشارق الأنوار على صحاح الآثار: (رزق).
(10) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (رزق).
(11) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 354.

ذلك بخيرٍ وشرٍّ، فأمّا الوعيدُ؛ فلا يكونُ إلّا بِشَرٍّ[1]، والوَعْدُ: هو الإخبارُ بأمرٍ مُستَقبَلٍ[2]، والموعِدُ: مَوضِعُ التَّواعُدِ، وهو الميعادُ[3]، والوَعْدُ في الآية معناه: الإخبارُ بالتزامِ المُخْبِرِ للمُخبَرِ بشيءٍ في المُستقبَلِ، أي: ما توعدونه من خيرٍ أو شَرٍّ[4].

5) ﴿تَنطِقُونَ﴾: أصلُ (نطق) يدلُّ على كلام أو ما أشبَهَه[5]، ومنه النُّطْقُ، وهو التَّكَلُّمُ بصوتٍ، يُقالُ: نطَقَ ينطِقُ نُطقًا ونَطْقًا، فهو ناطِقٌ، أي: تكلَّم بصوتٍ وحرفٍ، وضِدُّ النُّطْقِ: الصَّمتُ والسُّكوتُ، والمَنْطِقُ: الكَلامُ[6]، والنُّطق في هذه الآية: الكلام بالحروف والأصوات في ترتيب المعاني[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الأرض الَّتي نعيش عليها مُفعَمَةٌ بالعِبَر والعظات المُصَدِّقةِ للرَّسول والقرآنِ

لا مجال للخَرص والتَّخمين، وأمام أعينهم في الأرض - الَّتي يَسكُنونها، ويَطْعَمون خيرها - عِبرٌ وعظاتٌ أودَعها الله تعالى فيها، مثل البِحار والأنهار، والجبال والسُّهول، والمعادن، وسائر المخلوقات، الَّتي يُبصرها الموقِنون خصوصًا، فيستدلّون بها على أدلَّةِ وحدانيَّته وقدرته ﷻ على كلِّ شيء، ويرون في آيات الأرض وفي عِبَر الأنفس تصديقَ نبيِّنا ﷺ، وكتابنا المجيد.

بل وفي أنفسكم - أيُّها المشركون - وأبدانِكم وأرواحكم أدلَّةٌ بيِّنة على عظمة الخالق وقُدرته على كلِّ شيء، فهلّا تدَبَّرْتُموها بأعينِ قُلوبِكُم؛ إذ لم تصدِّقوا برَسولِنا ﷺ وبقرآننا الكريم؟.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وعد).
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة: (وعد).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (وعد).
(4) المراغي، تفسير المراغي: 26/ 178، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/ 255.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نطق).
(6) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (نطق).
(7) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 176.

واعلموا أنَّ في السَّماء تقديرَ رِزْقِكُم، وتحديدَه وأسبابَه، وفي السَّحاب الغيثُ المتسبِّبُ في إنبات الزُّروع والثِّمار، فليس الرِّزق موقوفًا على شيءٍ يتعلَّق بالكون الأرضي فقط، بل الأمرُ كلُّه لله تعالى، والله سبحانه يَبسط الرِّزق لمن يشاء ويقدر، وفي السَّماء ما توعدونهُ مِن خير أو شرٍّ، فمَن طلبَ أمرًا؛ فليَطْلُبْه بعزَّة مع العمل، فإنَّ الأمور تَجْري بالمقادير، فورَبِّ السَّماء والأرض إنَّ تقدير الرِّزق وتحديدَه في السَّماء لحقٌّ لا شكَّ فيه، مثل نُطْقِكُم أنتم، فلا تشكّوا في ذلك[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في قوله: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾:

ذِكْرُ أدلَّة وحدانيَّة الله تعالى وتمام قُدْرَتِه

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ استئنافيَّة؛ إذ يعود السّياق بعد ذِكْرِ مصير الخرّاصين ومصير المتَّقين إلى ذِكْرِ آيات الله تعالى الدّالَّة على وحدانيَّته وقُدْرَته على البعث والإحياء، ويجوز أن تكون (الواو) هنا عاطفةً على جملة جوابِ القسَمِ، وهي قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ۝٥﴾ [الذاريات: 5][2].

معنى (في) في قوله: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ﴾:

كلُّ ما هو داخل الغِلاف الجويِّ لـلأرض هـوَ مِن لواحِق ما فيها

(في) الواردة في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ ظرفيَّة، تَلْفِت إلى ما أودعه الله ﷻ من آياته وأدلَّة وحدانيَّته وقُدْرَته في الأرض، ودلالة الظَّرفيَّة في الحرف (في) هنا أعمُّ من دلالة الظَّرفيَّة الحسّيَّة، فلا تدلُّ على ما في باطن الأرض، بل تدلُّ على ذلك وعلى ما فوقها، وما في جوِّ غِلافِها وداخله، فكلُّ ذلك من الأرض وتوابعها.

فيدخل تحت ما (في الأرض) جميعُ المخلوقات المستبطِنة باطنَ

(1) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 534.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 352.

الأرض، والمستعلية عليها من بِحارٍ وأنهار وجبال وأشجار، وأناسٍ وحيوانات وجمادات، إلى آخر ما لا يُحيط به علمًا إلّا الله تعالى.

دلالةُ تعريف ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

معنى (أل) في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ تعريفيَّة للعهد الحضوريِّ، فالأرض حاضرةٌ تحت أعين المخاطَبين، يُقلِّبون فيها أبصارهم، والمطلوبُ أن يُقَلِّبوا فيها بصائرهم أيضًا، فالبصائر هي الَّتي تَفقَهُهم على أسرار آيات الله تعالى، فتُفعِمُهم يقينًا بوجود الله ﷻ، وبوحدانيَّته، وبقدرته على كلِّ شيء، ومن ذلك قُدرَتُه على الإحياء بعد الإماتة.

التَّنبيهُ على الآياتِ الأرضيَّة المُبْصَرَة

ومن آياتِ الأرض آياتُ التَّوحيد، وآياتُ البعث، وآياتُ القدرة، وغير ذلك، أو في خلقِها هي آياتٌ، وهو أن خَلَقَها، وكانت تَميدُ بأهلها، ثُمَّ أرساها بالجِبال حتّى استقرَّت[1].

وعلى القول بعهديَّةِ (أل) عهدًا حضوريًّا، يكون ما عدا المُبْصَرَ من أجزاءِ الأرضِ مُلْحقًا بها في الحُكْم؛ لكونِه من توابِعِها.

سرُّ تقييد الآيات بالجارِّ والمجرور (في الأرض):

في تقييد الآيات بالجارِّ والمجرور (في الأرض) تنبيهٌ إلى اختياره تعالى من أدلَّةِ الآفاق ما (في الأرض)؛ لظهورها لَمَنْ على ظُهورها، فإنَّ في أطرافِها وأكْنافِها ما لا يُمكِنُ عدُّ أصنافِه[2]، ممّا نَصَبَه الله تعالى من الأدلَّةِ على توحيده، وصِدْق وعدِه ووعيده[3].

النّاس بما على الأرض أعرفُ منهم بِما في غيرها مِن أجرامِ الكَوْنِ العُظْمى

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿ءَايَٰتٌ﴾، ونكتةُ تَنْكيرها وجَمعِها:

﴿ءَايَٰتٌ﴾ جمعُ آيةٍ، وهي العَلامةُ والدَّليل، وفي الأرض عِبَرٌ وعظاتٌ لأهل اليقين بحقيقةِ ما عاينوا، ورأوا؛ إذا ساروا فيها[4]،

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 381.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 172.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 101.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 518.

في أطراف الأرض وأكنافِها من الآيات ما لا يُمكن حصْرُهُ

وهي آياتٌ وأدلَّةٌ على الخالقِ وقُدْرَتِه وحِكْمَته وتدبيره؛ إذ هيَ مَدْحوَّة كالبِساط لِما فوقَها، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: 53]، "وفيها المسالكُ والفِجاج للمُتَقَلِّبين فيها والماشين في مناكبها، وهي مجزَّأة، فمِن سَهْلٍ وجبَلٍ وبرٍّ وبحر، وقِطَع متجاوراتٍ مِن صَلْبَة ورِخوَة... إلخ"[1].

وفي تنكير ﴿ءَايَٰتٌ﴾ دلالةٌ على عَظَمَتِها، وما تتضمَّنه من أدلَّة القُدْرَة، وجَمعُ الآيات يدلُّ على كثرَتِها، وتَنَوُّعِها، وتغازُر العِبَر الَّتي فيها - لمن أراد الاعتبارَ - وأنَّها لا تَتناهى، ففي آحادِها تناسبٌ لِقناعات آحادِ النّاس؛ إن لم تكن كلُّها مقنعة لِكلِّهم، وأنَّ كلًّا يَقْبِسُ مِن أنوارها بقدر إيمانه إن كان قابلًا للإيمان؛ وذلك مِن شأنه إعانةُ الشّاكّين على ترسيخ يقينِهم وتثبيته، فمنها "آيات الوحدانيَّة والرُّبوبيَّة، وآيات البعث، وآية وجوب الشُّكر والعبادة والامتحان"[2]، وفيها آثارُ الهلاك للأمم الكافرة المكذِّبة لِما جاءت به رسلُ الله، ودَعَتهُم إليه[3].

كذلك "ذَكَر سُبحانه الآيات بلفظ الجمع؛ لأنَّ الموقن لا يغفل عن الله تعالى في حالٍ، ويرى في كلِّ شيء آياتٍ دالَّةً، أمّا الغافلُ؛ فلا يَتَنَبَّه إلّا بأمور كثيرة، فيكون الكلُّ له كالآية الواحدة"[4]، ومع ذلك لا ينتفع بها؛ لأنَّ الآية على انفرادِها كافية في تنبيهِ الغافل؛ إن حقَّق النَّظر.

نكتةُ حذف متعلَّق الـ ﴿ءَايَٰتٌ﴾:

خَلْقُ الأرض وما فيها مِن آيات يدلُّ على الخالقِ وقُدْرَته وحِكْمَتِه وتدبيره

سكتَ النَّظم الكريم عن ذِكْرِ متعلِّق الآيات الَّتي في الأرض، وفي حَذْفِها دلالةٌ على عموم "كلِّ ما تصلحُ الآيات الَّتي في الأرض أن تدلَّ عليه"[5]، مِن الدَّلالة على الخالقِ وقُدْرَته وحِكْمَتِه وتَدْبيرِه[6].

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 399.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 381.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 101.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 171.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 352.
(6) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 373.

سرُّ تقديم شبه الجملة (في الأرض) على المبتدأ ﴿ءَايَٰتٞ﴾:

من عطاءات التَّقديم التَّشويقُ لِلمُؤَخَّر

في تقديم متعلِّق الخبر (في الأرض) على المبتدأ ﴿ءَايَٰتٞ﴾ تنبيهٌ لافِت على ما في الأرض مِن آياتٍ، والتَّقديمُ هنا لا يُفيد القَصْرَ؛ لأنَّ آيات اللّه تعالى للموقنين ليست في الأرضِ وحدها، بل في السَّماء وفي الأنفُسِ، وفي كلِّ شيءٍ، كما قال أبو العتاهية:

وَفي كُلِّ شَيءٍ له آيَةٌ *** تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الواحِدُ[1]

فالتَّقديم هنا للاهتمام والتَّنبيه إلى أهمّيَّة المقدَّم "والتَّشويق إلى ذِكْرِ المبتدأ"[2]، وفيه حَضُّ الموقنين على إعمال فِكْرِهم، وتقليب أبصارهم وبصائرهم في آيات اللّه تعالى المودَعَة في الأرض.

معنى (اللام) في القيد ﴿لِّلۡمُوقِنِينَ﴾:

الموقنون هم الَّذين يَتَلَقَّون من آيات الأرض رسائلَ الإيمان وأدلَّة القدرة

و(اللّام) في القيد ﴿لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ لامُ الاختصاص، أي: إنَّ الموقنين وحدَهُم هُم مَن يَلْتَفِتون إلى ما في الأرض مِن آياتٍ، ويَتَلَقَّون ما فيها من رسائلِ الإيمان وأدلَّةِ القُدْرَة، وهُم وحدَهُم مَن يُقَدِّرونها، ويُكْبِرونها إجلالًا لِخالقها ﷻ، و"هم الَّذين انتفعوا بدِلالَتِها، فأكسَبَتهُم الإيقان بوقوع البَعْثِ"[3]، و"سلكوا الطَّريق السّويَّ البرهانيَّ الموصِّل إلى المعرفة، فهُم نظّارون بِعُيون باصرة وأفهام نافذة، كلَّما رأوا آيةً عرفوا وجه تأمُّلها، فازدادوا إيقانًا على إيقانِهم"[4].

أمّا غير الموقنين؛ فلا يَلْتَفِتون إلى أسرار تلك الآيات، ولا يَنْتَفِعون بها، بل لا يعلمون بها أصلًا، فلا يَدّرون بأنَّها للّه تعالى خلقًا وتقديرًا، كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ١٠٥﴾ [يوسف: 105].

(1) ديوان أبي العتاهية، ص: 122، طبعة دار بيروت، 1406.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 352.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 352.
(4) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 374.

وجهُ التَّعبيرِ بلفظ (الموقنين) مادَّةً وصيغةً:

إيـمـانُ الموقـنين يَحصُل بالعلم والاستدلال، فلا يضعُفُ

في التَّعبير بمفردة الإيقان في القيد ﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾ دلالةٌ على بلوغ العلم والإيمان عندهم مبلغًا عظيمًا، فلم يَعد ذلك عندهم معلومًا مسلَّمًا فحسبُ، بل ترسَّخ في قلوبهم عقيدةً متينة متغلغِلة في سويداء قلوبهم؛ وذلك لأنَّ "اليَقينَ: هو العِلْمُ الحاصِلُ عَن نَظَرٍ واستِدْلالٍ[1]، فثَبَتَ على أساس قويٍّ راسخ.

وفي صوغ (الموقنين) اسمَ فاعلٍ تأكيدٌ لِرُسوخ يقينِهم بعظمة اللّه تعالى ووَحْدانيَّته، وعدم تَذَبْذُبِهِ مطلقًا، وعمق إيمانهم بقدرته سبحانه المطلقة، القادرة على إعادة جمع شَتات الأبدان وإعادة الرّوح فيها، وإقامة القيامة للمداينة والمُجازاة، فـ "صار الإيقان لهم غريزةً ثابتة"[2].

وكذلك "أوثر وصف (الموقنين) هنا دون (الذين أيقنوا)؛ لإفادة أنَّهم عُرفوا بالإيقانِ، وهذا الوصف يَقْتضي مَدْحَهم بِثُقوب الفهم؛ لأنَّ الإيقان لا يكون إلّا عن دليلٍ، ودلائل هذا الأمر نظريَّة، ومدَحَهم أيضًا بالإنصاف وترك المكابرة؛ لأنَّ أكثر المنكرين لِلحقِّ تَحمِلُهم المكابرة أو الحسَدُ على إنكارِ حقٍّ من يتَوَجَّسون منهُ أن يَقضي على منافِعِهم"[3].

نكتةُ تخصيص الآيات بـ (الموقنين):

أهـلُ اليـقينِ لا يتَّبعون الأهواء، ولا يُتابِعون أهل الضَّلال

خُصَّ وصف (الموقنين) هنا؛ "لأنَّهم الَّذين يعترفون بذلك، ويتدبَّرون فيه، فينتفعون"[4]، وفيه "إشارة إلى أنَّه لا ينتفع بتلك الآيات الكونيَّة، ولا يقع على مواقع الهُدى منها إلّا أهلُ اليقين، الَّذين يطلبون العلم والمعرفة بالبحث الجادِّ والنَّظر المتفحِّص، فإذا

(1) الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: (يقن).
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 457.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 352 - 353.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 101.

وقع لهم من ذلك عِلمٌ؛ كان علمُهم عن برهانٍ وحُجَّة، فيقع منهم ذلك العلم موقعَ التَّثبُّت واليقين، فهُم - والحال كذلك - لا يتَّبعون الأهواء، ولا يتابعون أهل الضَّلال"[1].

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

قال تعالى هنا: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ﴾ بجمع (الآيات)، وقال في سورة يس: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [يس: 33]، فأفردَ، وذلك "لمّا جَعَل الآية لِلموقنينَ؛ ذَكر بلفظ الجمع؛ لأنَّ الموقن لا يغفل عن الله تعالى في حالٍ، ويرى في كلِّ شيء آياتٍ دالَّةً، وأمّا الغافل؛ فلا يتَنَبَّه إلّا بأمور كثيرةٍ، فيكون الكلُّ له كالآية الواحدةِ"[2].

لا يغفل الموقِن عن الله تعالى وآياتِهِ وأدلَّةِ قدرته بِحالٍ

توجيهُ العطف بالواو في قوله: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ عاطفةٌ على جملة: (في الأرض آيات للموقنين)، والتَّقدير: وكذلك في أنفسكم آيات للموقنين، فالمؤمن الموقِن يَرى عظمة الله تعالى في كلِّ شيء بدءًا مِن نفسِه ومُرورًا بِمن حوله وما حوله (في الأرض)، وصُعودًا في الأفلاك والأجرام العُظمى.

آيـاتُ الله تعالى ليست في الكون مِن حول الإنسانِ فحسبُ، بل في نفسِه الَّتي بين جنبيهِ كذلكَ

وفي قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ إحالةٌ على النَّظر في شخص الإنسان، فإنَّه أكثر المخلوقات عِبرةً؛ لِما جعل الله تعالى فيه - مع كونه مِن ترابٍ - مِن لطائف الحواسِّ، ومن أمر النَّفس وجِهاتِها ونُطْقها، واتِّصالِ هذا الجزء منها بالعقل، ومِن هيئة الأعضاء، واستعدادها لِتَنْفع، أو تُجَمِّل، أو تُعين"[3]، وكذلك في النَّفس من "الآيات الَّتي شاركتم بها الجماد، ثُمَّ فارقتموه بالنُّموِّ، ثُمَّ بالحِسِّ، ثمَّ فارقتم الحيوانَ الخسيس بالعقل الموصِّل إلى بدائع العلوم ودقائق الفهوم"[4].

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 511.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 171.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 175.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 457.

معنى (في) في قوله: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾:

القرآنُ الكريم يَدْعو الإنسانَ إلى التَّفكُّر في أعماق نفسِه ودخائلها الدَّقيقة

(في) الواردة في قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ ظرفيَّة، تدعو الإنسانَ إلى التَّفكُّر في أعماق نفسِه ودخائلها الدَّقيقة، فذلك أقربُ إليه ممّا في الأرضِ عمومًا، والإنسانُ بنَفْسِه أدرَى، وعلى الإحساسِ بها والوقوف على أسرارها أقدَرُ، فلعلَّ ذلك ينفَعُه في تربيَةِ يَقينِه وترسيخ عَقيدَتِه.

لطيفة تقديم ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾:

آياتُ الله تعالى في الأنفس أقوى من آياته في غَيْرِها

في تأخير دعوة العبادِ إلى تدبُّر آيات الله تعالى في أنفسهم بعد دعوته إيّاهم إلى تدبُّر آياته سبحانه في الأرض - على الرُّغم مِن دخولها فيها - تَرَقٍّ وتَصَعُّدٌ في التَّوجيه إلى المتدبَّر؛ إذ إنَّ التَّدبُّر في النَّفس أقطعُ بالدَّليل على عظمة الله تعالى؛ لأنَّ نفس العبد أنفعُ له، وأخصُّ به وأمسُّ، وهو أكثر انشغالًا لاكتشاف عوالِمها والبصر بأسرارها.

وفي دعوة العبادِ إلى تدبُّر آيات الله تعالى في أنفسهم بعد دعوته إيّاهم إلى تدبُّر آياته سبحانه في الأرض ذِكْرٌ للخاصِّ بعد العامِّ؛ تمييزًا له وعنايةً به، "فآياتهُ تعالى في الأنفس أقوى من آياتِه في غيرها"[1].

دلالة التَّعبير بالنَّفس في قوله: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾:

التاركُ للتَّفكُّر في نفسه أجهلُ وأسوأُ حالًا من التّارك للفِكْرَة في غيره

قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ "يحتمل أن يكون المراد (وفيكم)، يُقال: الحجارةُ في نَفْسِها صلبَةٌ، ولا يُراد بها النَّفس الَّتي هي منبع الحياةِ والحسُّ والحركات، ويحتَمِلُ أن يكون المراد: وفي نفوسِكُم الَّتي بها حياتُكم"[2]، فالنَّفس هنا أشمَلُ من الرّوح؛ لأنَّ حكمة الله تعالى في خلق البدن على هذه الهيئة وآياتِه أوضحُ للإنسان من حكمته وآياته في خلق الرّوح؛ وذلك لخفائها كما قال الله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ

(1) رضا، تفسير المنار: 8/ 241.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 172.

﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: 85]، فأسرار الرّوح تَخفى على النّاس على الرُّغم مِن كونِها أرواحَهم الَّتي في أبدانهم، على أنَّ ذلك الخفاءَ أيضًا مِن أعظم الآيات؛ إذ يحيا الإنسانُ، ولا يدري لتفاصيل حياته أسبابًا.

أمّا آياتُ اللّه تعالى في تركيب الجسد على هذه الهيئة الَّتي امتنَّ اللّه تعالى بها في نَحْوِ قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: 4]؛ فأبينُ وأقرب دلالةً على وضوح الحكمة والقدرة وحُسن الخَلْق ودِقَّة التَّقدير.

فـ "سوَّى أنفسَكُم على أحسَنِ الصّور، وأحسن التَّقويم بعد أن كان أصلُها وجوهرُها من ماء، وكذلك أصلُ جواهر الأنعام والبهائم من نُطْفَة أيضًا، ثُمَّ ركَّبَكُم على صوَر صالحةٍ لِمَنافِعِكم، وركَّبكم على أحسنِ الصّور، ثُمَّ جعل فيكم من العقلِ والسَّمع والبصر ما يدرك بها حقائق الأشياء المحسوسة والمعاني الحكيمة؛ لتتأمَّلوا في ذلك كلِّه، فتكون آيةُ الوحدانيَّةِ آيةَ إلزامِ الشُّكر والعبادة له"[1].

وقد ذكر بعضُ أهل العلم أنَّ المقصود بالآيات الَّتي في أنفسنا "سبيل الغائط والبول، أو تسوية مفاصل أيديكم وأرجلكم وجَوارِحكم، وأنَّها دليلٌ على أنَّكم خُلِقْتُم لعبادته، أو في خلقكم من تراب، ثمَّ إذا أنتم بشر تنتشرون، أو في حياتكم وموتكم، وفيما يَدخل، ويَخرج من طعامكم، أو في الكِبَر بعد الشَّباب، والضَّعف بعد القوَّة، والشَّيب بعد السَّواد، أو نُجْح العاجز وحِرمان الحازم"[2]، وفي ذِكْرِ الأنفُس هنا دلالةٌ على أنَّ التّارك للتَّفكُّر في نفسه أجهلُ وأسوأُ حالًا من التّارك للفكرة في غيره[3].

بيانُ مرجع ضَمير الخطاب في ﴿أَنفُسِكُمْ﴾:

انتقل السّياق الكريم من وصف أحوال المتَّقين في الآخرة إلى مخاطبة مشركي مكَّةَ[4]، فالمخاطَبون هم الخرّاصون السّابقُ ذِكْرُهم قبلُ، ويرجِّح ذلك أنَّ الموحِّدين المتَّقين الموقنين يرون آياتِ اللّه تعالى، ويؤمنون بها، ويتلمَّسونها في كلِّ شيء، فلا يحتاجون إلى

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 382.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 367.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 4/ 224.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 40.

الحثِّ على التَّدبُّر الوارد في قوله تعالى بعدُ: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ إلّا على سبيلِ التَّذكيرِ وإرادةِ الدَّوام، وتكون الحكمةُ في هذا التَّنبيه إلى أنَّ تدبُّر الآيات فيه إقامةُ الحجَّة على أولئكَ الخرّاصين، وسَوْقُ الأدلَّة على صحَّة ذلك كلِّه من خلال تدبُّرهم آيات الله تعالى في الأرض وفي أنفسهم.

الموقنون يرون آياتِ الله تعالى، ويؤمنون بها، ويتلمَّسونها في كلِّ شيء

دلالةُ الإضافة في ﴿أَنفُسِكُمْ﴾:

الإضافة في ﴿أَنفُسِكُمْ﴾ تَلْفِت إلى كونهم بمعرفتها والوقوف على ما يُمكِنُهم من آيات الله تعالى فيها أخصُّ، وأنَّهم على البصر بما فيها أقدر، وأنَّها إليهم أقرب، وبِدعوة العباد إلى تدبُّر آيات الله تعالى في أنفُسِهم - فضلًا عن دعوتهم إلى تدبُّر آياته تعالى في الأرض - دلالةٌ على وفْرَةِ آياته سبحانه في كلِّ شيءٍ - داخلَ النَّفس وخارجَها، إجمالًا وتفصيلًا - لمن أراد التَّدبُّر وسعى نحوَ تحصيل اليقينِ.

آياتُ الله تعالى في كلِّ شيءٍ وفيرة لمن أراد التَّدبُّر، وسعى نحو تحصيل اليقين

لطيفةُ الالتفات في قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾:

التفتَ النَّظم الكريم من أسلوب الغَيبة في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾، إلى أسلوب الخطاب في قوله: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾؛ تحقيقًا وتأكيدًا لقيام الدَّليل عليهم مِن أنفُسِهم خصوصًا بعد قيامه عليهم في الأرضِ عمومًا.

مَن فاته النَّظرُ والاعتبار بما في الأرض؛ لا ينبغي أن يفوتَهُ الاعتبار بما في نفسِهِ

والمعنى: إن كان قد فاتَكُم النَّظر في آيات الأرض على كَثْرَتها وتنوُّعها؛ فهل يفوتكم النَّظر في آيات أحوالكم أنتم، وآياتِهِ تعالى في خَلْقِكُم، وتطوُّر مَراحِلِ نَشْأتِكُم؟.

بلاغة الحذف في قوله: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾:

في قول الله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ حَذْفٌ اكْتُفِيَ به عن ذِكر عُمد الجملة وأُسُس بنائها؛ إذ التَّقديرُ: وفي الأرض آياتٌ للموقنين وفي أنفُسِكُم آياتٌ لكم، وعلى ذلك يكون تدبُّر الموقنينَ أعمَّ وأشمل

وأعظم من تدبُّر غيرهم؛ إذ غيرهم يتدبَّر ما في نفسِه، والموقن يتدبَّر ما في الأرض على الإجْمالِ والتَّفصيل.

حـــذْفُ بعض عناصر التَّركيب يُفسِح ميدان التَّدبُّر للمذكور فيها

ولا يصحُّ عطف ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ على (في الأرض)، بل لا بُدَّ من انتماء كلٍّ منهما إلى جملة مستقلَّة، والقاضي بذلك غَيْبَة الموقنين هنا، وحُضور المخاطَبين المدعوّين إلى التَّفكُّر في الأنْفُسِ، فيتوزَّع المتعلِّقان: (في الأرض)، و(في أنفسكم) على الصِّنْفين.

نكتةُ تقديم القيد ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ على عامله:

ليسَ في العالَمِ شيءٌ إلّا وفي الأنفُسِ له نظيرٌ يَدُلُّ دلالَتُه

وفي تقديم ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ على متعلِّقه ﴿تُبۡصِرُونَ﴾ اهتمام بالنَّظر في خلق أنفسهم، ويحقِّق تقديمُه كذلك تأخيرَ متعلِّقه ﴿تُبۡصِرُونَ﴾، فتتحقَّق إلى ذلك رعايةُ الفاصلة وتناسُبها، والمعنى: ألا تتفكَّرون في خلق أنفُسِكم: كيف أنشأكم الله تعالى مِن ماء؟ وكيف خلقكم أطوارًا؟.

وهذا التَّكوين العجيب كما يدلُّ على إمكان الإيجاد بعد الموتِ، يدلُّ على تَفَرُّد مكوِّنه تعالى بالإلهيَّة[1]، ففي هذا التَّقديم تنبيهٌ على أنَّه "ليسَ في العالَمِ شيءٌ إلّا وفي الأنفُسِ له نظيرٌ يَدُلُّ دلالَتُه على ما انفرد به من الهيئاتِ النّافعةِ، والمناظرِ البهيَّةِ، والتَّركيباتِ العجيبةِ، والتَّمكُّنِ من الأفعالِ البديعةِ، واستنباطِ الصَّنائعِ المختلفةِ، واستجماعِ الكمالاتِ المتنوِّعةِ"[2].

علَّة فصل قوله: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ عمّا قبله:

تبايُنُ الأسلوبيْنِ يقتضي تركَ العَطْفِ في الأكثر

فُصلَ قوله: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ عن قوله: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾؛ لِما بينَهما من كمال الانقطاعِ؛ إذ الجملتانِ مختلفتان خبرًا وإنشاءً، فالأولى خبريَّة، والثّانية إنشائيَّة؛ لكونها استفهامًا، ولا يُعْطف الإنشاء على الخبرِ غالبًا.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 353 بتصرُّف.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 139.

بلاغة الاستفهام في قوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾:

مَـن غـفـل عـن تدبُّر آيات الله تعالى في نفسِه وفي خارجها؛ فـهـو أهـلٌ للتَّوبيخ

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يتضمَّن جملةً من الدَّلالات المهمَّة، فهو "استفهامٌ إنكاريٌّ، أنكر عليهم عدمَ الإبصار للآيات"[1]، وفيه توقيفٌ وتوبيخ[2]، وفيه "تعنيفٌ على ترك النَّظر في الآيات الأرضيَّة والنَّفسيَّة"[3]، فالخطاب إذًا للكافرين لا للموقنين، وفيه إشارة إلى ظهورها[4].

وفي الاستفهام كذلك معنى الأمر، أي: أبْصِروا، وتدبَّروا، واتَّعِظوا بآيات الله تعالى المتاحةِ لكم، واستدِلّوا بها على كمال عظمته وطلاقة قدرته في خلقه، واتَّخِذوا منها شواهد تَدُلُّكم على قدرته على إحيائكم بعد الموت، ومُدايَنَتِكم ومحاسبتكم، ففي تلك الآيات كفايةٌ لَمَنْ أقبل على النَّظر فيها بتجرُّد الهوى.

وفي هذا الاستفهام أيضًا معاني التَّخصيص والإغراءِ على التَّبصُّر، والتَّرغيب في تدبُّر آياته تعالى، وتدبُّر حِكَمِ الله تعالى فيها، كذلك في هذا الاستفهام مِن التَّعجيب ما فيه.

معنى (الفاء) و(لا) في قوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾:

حضُّ المخاطَبين على التَّدبُّر في كمال الصِّفات الإلهيَّة

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ عاطفة على جملةٍ مقدَّرةٍ، والمعنى: أشُغِلتُم عن تلك الآياتِ، فَلا تُبْصِرونَها؟.

و(لا) في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ نافيةٌ، وهذه الجملة الإنشائيَّةُ - ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ - اعتراضيَّةٌ بين الأخبارِ المُتَعاطِفَةِ (﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾، ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ﴾ ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾)، ومن مُهِمَّتِها تَحْضيض المخاطَبين على استثمار ما يقع تحت حسِّهم مِن الآيات الإلهيَّة في الاستدلال على كمالِ القُدرة، وعظمة الألوهيَّة الحَقَّة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 353.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 175.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 11.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 172.

سرُّ التَّعبير بالفعل ﴿تُبْصِرُونَ﴾ مضارعًا مُسندًا إلى واو الجماعَةِ:

معنى ﴿تُبْصِرُونَ﴾ هنا يعني: نَظَر الاعتبارِ[1]، أي: "أفلا تَتْظُرون في ذلك، فتَتَفَكَّروا فيه، فتعلموا حقيقةَ وحدانيَّة خالقكم؟"[2]؛ لذلك فـ "الإبصار مستعارٌ للتَّدبُّر والتَّفكُّر، أي: كيف تتركون النَّظر في آياتٍ كائنة في أنفُسِكم؟"[3].

العبدُ مطالب بتقليب البصر في نَفْسه وفي الأرض؛ لاستنطاق الآيات واستنباط الحِكَم

ومن لطائف التَّعبير بِفعل الإبصار هنا دلالتُهُ على أنَّ مجرَّد الإبصار بالعين الباصرة يقود إلى تبيُّن الآيات، ويوقِف المُبْصِر على شيء من أسرارها، وإلّا لقيل - في غير القرآن الكريم -: أفلا تتفكَّرون، أفلا تتدبَّرون؟ ومعنى ذلك: أنَّهم يُبصرون، فَيَعْلَمون، لكنَّهم للحقِّ يَجْحَدون.

قال الشِّهاب: "وفي قوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ - مِن غير تمييز بين الإبصار المتعلِّق بالأنفس، والمتعلِّق بما يقابلها - إشارةٌ إلى شِدَّة ظهورها؛ إذْ سَوَّى بين المحسوس وغيره، حتّى كأنَّ الجميعَ محسوس"[4].

وفي صَوْغِ الفِعْلِ ﴿تُبْصِرُونَ﴾ مضارعًا دلالةٌ على مُطالَبَتهم بتَجْديدِ الإبصار، وتقليبِ البَصَر في النَّفْس وفي الأرض؛ لاستنطاقِ الآيات واستنباطِ الحِكَم؛ وذلك مِن عَمَلِ العُقول والقلوب.

وفي إسناد الفعل إلى واو الجماعَة ﴿تُبْصِرُونَ﴾ إيماءٌ إلى أنْ يتدبَّر كلُّ إنسانٍ في نفسه؛ لأنَّ الواوَ تدلُّ على الجَمع، والأنفس في قوله: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ جمعٌ، ومِنَ المتقرَّر: أنَّ مقابلةَ الجمع بالجَمعِ تقتضي القسمَةَ آحادًا.

لطيفة حذف مفعول ﴿تُبْصِرُونَ﴾:

امتلاكُ حاسَّة الإبصار كافٍ في الاستدلال على آيات الله تعالى

أمسَك النَّظمُ الكريم عن ذِكر مفعولِ الفعل ﴿تُبْصِرُونَ﴾، والتَّقدير: أفلا تُبْصِرونَها، أي: الآيات الَّتي في أنْفُسِكُم وفي الأرض.

(1) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 374.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 520.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 353.
(4) الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 1/ 94.

وفي حذف هذا المفعولِ إشارةٌ لطيفة، هي أنَّ مجرَّد امتلاكِ الإنسان حاسَّة الإبصار وقدرته على البصَر كافيانِ في الوقوف على تلك الآيات، وإدراك أدلَّتها على قدرة الله تعالى، أي: إنَّ توفُّر الأبصارِ يقود قطعًا إلى إبصار تلك الآيات.

سرُّ الدَّعوة إلى التَّفكُّر في آيات النَّفس دون آيات الأرض:

قال ابن عاشور: "وفي ما يشاهَد من أحوال الأرض آياتٌ للموقنين، وهي الأحوال الدّالَّة على إيجاد موجوداتٍ بعد إعدام أمثالِها وأصولها، مثل إنبات الزَّرع الجديد بعد أن بادَ الَّذي قبلَه، وصار هشيمًا، وهذه دلائلُ واضحة متكرِّرة، لا تحتاج إلى غَوْص الفكر؛ فلذلك لم تُقْرَن هذه الآياتُ بما يدعو إلى التَّفكُّر، كما قُرِن قولُه: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾"[1].

الوقوفُ على آيات النَّفس أحوجُ إلى التَّفكُّر والتَّدبُّر من الوقوف على آيات الأرض

وفي ذلك الملمح دلالةٌ على أنَّ الوقوف على آيات الله تعالى في النَّفس أحوجُ إلى التَّفكُّر والتَّدبُّر من الوقوف على آياته تعالى في الأرض؛ وذلك لِما في النَّفس مِن ثباتٍ، وما في الأرض من تَبَدُّل، وإلّا ففي النَّفسِ أيضًا تبدُّلٌ حسّيٌّ ومعنويٌّ؛ إذ يتبدَّل الشَّعْر والأظفار، والجلود، وغيرها ممّا يظهر للعبد، وكذا تتبدَّل أحوال النَّفس من السُّرور والحزن، والانشراح والضّيق، وما إلى ذلك.

معنى الواو في قوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ عاطفة، فقد عطَفَت الخبر بعدها (في السَّماء رزقكم) على الخبر قبلها: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾، أي: وفي أنفُسِكم آياتٌ، وفي السَّماءِ أسبابُ الأرزاقِ.

توالي الأخبارِ مِن مُقْتَضيات العطفِ

معنى (في) في قوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾:

(في) في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ ظرفيَّة، تُسْهِم في دعم يقين المتلقّي فيما يَتعلَّق بقضيَّة الرِّزْق، وأنَّ رزقهم مضمون؛

رزقُ الإنسان مضمون؛ لأنَّه في حِرز من الآفاتِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 352.

لأنَّه مكنونٌ محفوظ في السَّماء، والمكنونُ المحفوظُ في شيءٍ مضمونُ السَّلامةِ من الآفات والسَّرِقات، فما الظَّنُّ إن كان ذلك الحِرزُ هو السَّماءَ؟ فلا شكَّ أنَّه في حرز عظيمٍ.

معنى (أل) في ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ للعهد العلميِّ، فالمقصودُ سماءٌ معيَّنة هي السَّحاب، والعَرب تعبِّر بالسَّماء عن السَّحاب، يقول الشاعر:

تنـوُّع المعـاني باختلافِ دَلالاتِ الحُروف

إذا نَزَلَ السَّماءُ بأرضِ قومٍ *** رَعَيْناهُ وإنْ كانوا غِضابا[1]

وذلك من التَّعريف اللُّغويِّ للسَّماء، فـ "العرب تسمّي كلَّ ما علا سماءً"[2].

ويجوزُ أن تكونَ (أل) في ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾؛ لتعريف العهد العلميِّ، مرادًا بها السَّماء السّابعة؛ إذ يوجد اللَّوح المحفوظ، وفيه تقادير الأقدار، وتقاسيم الأرزاق والأعمار، وغير ذلك.

دلالةُ التَّعبير بالرِّزق، ونُكْتَةُ صوغهِ مصدرًا:

أسبابُ الأرزاقِ ومقاديرها عند الله تعالى

المقصود بالرِّزق في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ سببُه، وهو المطر، أي: إنَّ "سببه من السَّماء؛ لذلك أُضيفَ إليها"[3]، وعُدِل عن ذِكر المطر إلى الرِّزق إدماجًا؛ للامتنان في الاستدلال، وهذا قياسٌ تمثيلٍ للنَّبْت، أي: في السَّماء المطرُ الَّذي تُرزقون بسببه، فالرِّزق: هو المطر الَّذي تحمله السُّحب[4]، ففيه "تجوُّزٌ بِجَعْل وجود الأسباب فيها كوجودِ المسبَّب"[5].

---

(1) قال العبّاسي في معاهد التنصيص 2/ 260: "نسب غالب شارحي التّلخيص هذا البيت لجرير، وهُو من قصيدة من الوافر أوّلها: (أقلي اللوم عاذِل والعتابا)، ونسبه المفضّل في اختياراته لمعاوية بن مالك بن جعفر معود الحُكماء"، والبيت ليس في ديوان جرير ضمن القصيدة المذكورة، يُنظر: ديوان جرير، ص: 58 - 65.

(2) القاسمي، محاسن التأويل: 4/ 445.

(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 382.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 354.

(5) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 96.

أو المقصود بالرِّزق هنا: "تقديرُ رزقكم، وما قَسَمَه لكم مكتوبٌ في أمِّ الكتاب"[1]، أو "القضاء والقدر، أي: الرِّزق عند الله يأتي به كيف يشاء، لا ربَّ غيرُه"[2].

وصَوْغُ الرِّزق في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ مَصْدَرًا يدلُّ على ثُبوته وتحقُّقه وعدم تبدُّله، فلا ينال العبدُ إلّا ما كتبَهُ الله تعالى وما قدَّره له.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿رِزْقُكُمْ﴾:

ما قُـدِّر للعبد الانتفاعُ به؛ لا يناله غيرُه، ولا ينالُ هو غيرَه

في إضافةِ الرِّزق إلى ضمير المُخاطَبين في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ دلالةٌ على أنَّ أرزاقهم محدَّدةٌ لهم معروفة بهم، مقدَّرٌ لهم الانتفاع بها، فلا ينالها غيرُهم، ولا ينالون هم غيرَها، وأنَّ ما كُتب لهم مضافٌ إليهم، مخصوصٌ بهم، فلا موجبَ للقلق، ولا مقتضى للاحتراب على الظَّفر بما ليس لكم.

بلاغةُ تقديمِ متعلِّق الخبر في قوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾:

الانـشـغـال بـالـرِّزق عـن مسبِّب الـرِّزق جـحـودٌ ونـكـرانٌ للفضل

في تقديم متعلِّق الخبر ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ﴾ على المبتدأ ﴿رِزْقُكُمْ﴾ قصرٌ حقيقيٌّ، مبنيٌّ على التَّوسُّع؛ إذ إنَّ ما في السَّماء مِن الأرزاق إنَّما هو سببها، أمّا نفْسُ الأرزاق؛ فقد أودِعَت في الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت: 10]، ففي ذلك التَّقديم إشارة إلى أنَّ الله تعالى يملِك أسباب الأرزاق، فلا تُلهيَنَّكم الأرزاقُ عن طاعة مصرِّف أسبابِها.

كذلك في هذا التَّقديم تحقيقُ التَّشويق إلى المبتدأ المؤخَّر، والاهتمامُ به، ورعايةُ تناسُبِ الفاصلةِ[3].

(1) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 368.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 176.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 354 بتصرف.

معنى الواو في قوله: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾:

ضَمِنَ الله تعالى للعبد الموقن رِزْقَـي الدُّنيا والآخرة

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ عاطفة؛ إذ تجمَعُ في الضَّمانِ بين الرِّزق الدُّنيويِّ والوعد الأخرويِّ - أي: الجنَّة - وذلك الخيرُ كلُّه، فماذا ينقص العبدَ ليستقيم، ويُحسِن التَّوكُّلَ على الخالق العظيم الرّازق الكريم ﷻ، وقد ضمِن له الضَّمانَين من خيرَي الدُّنيا العاجلة والآخرة الآجلة إلى غير نهاية؟.

وعَطْفُ قوله تعالى: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ "إدماجٌ بين أدلَّة إثبات البعث؛ لقصد الموعظة الشّاملة للوعيد على الإشراكِ، والوعد على الإيمان إن آمنوا؛ تعجيلًا بالموعظةِ عندَ سُنوح فُرْصَتِها"[1].

علَّة التَّعبيرِ بالموصول (ما):

تفخيمُ الموعودِ وتعميمُهُ

في التَّعبير بالموصول (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ تفخيمٌ لِمَوْعودِهم وتهويلٌ له؛ لِما في الموصول مِنَ الإبهام، فالموصول (ما) هيَّأ لذِكْرِ الوعد بإيحاءاتِه الطَّيِّبة، والوعد يَغيب بالتَّعبير بالاسم العَلَم الصَّريح (الجنَّة) لو قيل في غيرِ القرآن الكريم: وفي السَّماء رِزْقُكُم والجنَّة؛ فالتَّهيئة لذِكْرِ بعضِ العناصر من فضائل (ما)، ومِن دلالتها تعميمُ الموعود بهِ، فقد يكون الجنَّة، أو مِن العذاب؛ فيكون الإيعادُ عامًّا[2].

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

وعْدُ الله تعالى متحقِّقٌ قطعًا

في التَّعبير بمفردة الوعد في الفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾ تبشير بالوفاء به، فالوعد غالبًا ما يُنجَز، وبخاصَّة إذا صدر مِن القادر عليه الصّادق فيه، ولا أقدر عليه، ولا أصدق فيه من مالك الملك ﷻ، والتَّعبير بالفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾ "يحتمل أن يكون من الوعد، ويحتمل أن يكون من الوعيد"[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 354.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 172.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 176.

والمضارعَة في الفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾ تكشف حيويَّة ذلك الوعد، وبقاءَهُ لائحًا مُبشِّرًا، باعثًا الهِمَّةَ، مجدِّدًا العزم في اتِّخاذ السَّبيل إلى تحقيقه من إخلاصٍ واجتهاد واشتياق، وفي المضارعة كذلك استحضارٌ لهذا الوعد، وتذكير بحصوله؛ ممّا يجدِّد إيمان العبد، ويَمدُّه بالقوَّة على احتمال مشاقِّ الحياةِ.

وفي المضارعة أيضًا إيماءٌ بتحقُّق وعيدِ الله تعالى للخَرّاصين والكافرين جميعًا، وكذلك تستحضر المضارعةُ وعيدَهم؛ لعلَّهم ينتهون عن تَخَرُّصهم وكُفرهم.

من وجوه الإعجاز القرآنيّ في صيغة ﴿تُوعَدُونَ﴾:

من خصائص إعجاز القرآن اصطفاءُ الصّيغة الدّالَّة على المعنى وضدِّه من غير تعارُضٍ

في إيثار صيغة ﴿تُوعَدُونَ﴾ خصوصيَّةٌ من خصائص إعجاز القرآن، فإنَّ هذه الصّيغة صالحة لأن تكون مصوغة من (الوعد)، وصالحة لأن تكون من (الإيعاد)؛ وبذلك صار الفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾ محتملًا البشارةَ والإنذار[1]، وهذا من الإيجازِ والإعجازِ.

نكتة حذف متعلّق الوعد:

كلُّ ما وُعِد به النّاس من أمر الآخرة واقعٌ لا محالة

سكت النَّظم الكريم عن تحديد موعودٍ به معيَّنٍ، وفي ذلك إفادةُ عموم ما وُعِدوا به من الخير والشَّرِّ[2]، وغير ذلك، وقد ذكر الطَّبريُّ أنَّ الصَّواب في الآيةِ أنَّهُ كلُّ ما وُعِدْنا به من خير أو شرٍّ، ولم يُخَصَّ أمرٌ دون آخرَ، فهو على عمومهِ، كما عمَّه الله جلَّ ثناؤه[3].

لطيفةُ بناء الفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾ للمفعول:

ثقةُ الموقِنين في وعْدِ الله تعالى

في بناء الفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾ للمفعولِ - من غير تصريحٍ بالفاعِلِ - إشارةٌ إلى علم الموقنينَ جميعًا بالواعدِ المَوَفّي بالوعد ﷻ، وثقتهم في تحقُّقه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 354.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 520.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 523.

بلاغةُ ترتيبِ الآيات الثَّلاث:

ترتيبُ الآيات الثلاث: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ "ترتيبٌ حَسَنٌ؛ وذلك لأنَّ الإنسان له أمور يَحتاج إليها، لا بُدَّ من سَبْقها حتّى يوجد هو في نَفْسِه، وأمورٌ تُقارنه في الوجود، وأمور تَلحقه، وتوجَدُ بعدَهُ؛ ليَبْقى بها.

ترتيبُ العبارات القرآنيَّة يُراعى فيها واقِعُ الحالِ

فالأرض هي المكان، وإليه يحتاج الإنسان، ولا بُدَّ من سبقها؛ فقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ﴾، ثمَّ في نَفس الإنسان أمورٌ من الأجسام والأعراض، فقال: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾، ثمَّ بقاؤه بالرِّزق، فقال: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾، ولولا السَّماء؛ لَما كان للنّاس البقاء"[1].

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَوَرَبِّ﴾:

(الفاء) في قول الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾ تفريعيَّة، فما دام وعدًا من الله تعالى؛ فهو محقَّق لا محالة، وفيها إيحاءٌ بِقُرب حصوله، فإنَّ ما هو آتٍ قريبٌ، والدُّنيا معبَرٌ إلى دار القرار، فطولُها قصيرٌ.

الوعدُ من الله ﷻ محقَّق الوقوعِ

و"الفاء تستدعي تعقيبَ أمرٍ لأمر، كأنَّه تعالى يقول: إنَّ ما توعدون لحقٌّ بالبرهان المبين، ثُمَّ بالقسم واليمين، أو كأنَّه تعالى يقول: والذّاريات، ثُمَّ فوربِّ السَّماء والأرض، وعلى هذا يكون (الفاءُ) حرفَ عطفٍ أُعيد معه حرف القسَم، كما يُعاد الفعل؛ إذ يصحُّ أن يُقال: ومرَرْتُ بِعَمرٍو، فقوله: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ٢﴾ [الذاريات: 1 - 2]، عُطِف من غير إعادة حرف القسَم، وقوله: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ مع إعادة حرفه، والسَّبب فيه وقوعُ الفَصْلِ بين القَسَمَين.

ويحتمل أن يقال: الأمر المتقدِّم هو بيان الثَّواب في قوله: ﴿يَوۡمَ هُمۡ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 172.

عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ﴾، وفيه فائدة هي أنَّ الفاء تكون تنبيهًا على أنَّه لا حاجة إلى اليمين مع ما تَقَدَّمَ مِن الكشف المبين، فكأنَّه يقول: وربِّ السَّماء والأرض إنَّه لحقٌّ، كما يقول القائل بعد ما يُظهر دعواه: هذا والله إنَّ الأمر كما ذكرتُ، فيؤكِّد قوله باليمين، ويشير إلى ثبوته من غير يمينٍ"[1].

معنى الواو في قوله: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ﴾:

(الواو) في قوله: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾ واوُ القسم، الباعثَةُ على مزيدٍ مِن الطُّمأنينة في نفوس المخاطَبين في الأرض جميعًا ضمانَ أمرِ الرِّزق في الدُّنيا، والقطع بأنَّ أسبابه بيَد الله تعالى في السَّماء، لا في يد أحدٍ سواه، وأنَّ أمرَ الجنَّة والسَّعادة الأبديَّة في الآخرة في مقعد صِدق عند مليك مقتدر، مضمونٌ للموقنين، وأنَّ أمر العذاب الأبديِّ في الآخرة كذلك محتوم للكافرين.

الرِّزق في الدُّنيا والجزاءُ في الآخرة مضمونانِ؛ لأنَّهما بيَد الله تعالى

بلاغةُ التَّرقّي من القَسَم بالمخلوقات إلى القسَم بخالقها سبحانه:

أقسَم الله تعالى قبلَ هذه الآيات بالمخلوقاتِ الأرضيَّة، وهي الرّياح والسَّماء في قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١﴾ [الذاريات: 1]، وقوله سُبحانَهُ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾، ولم يُقْسِم بِرَبِّها، وهاهنا أقسم بِرَبِّها، فكذلك التَّرتيب؛ إذ يقسم المتكلِّم أوَّلًا بالأدنى، فإن لم يُصدَّق؛ ارتقى إلى الأعلى[2]، فـ "تَوَّج هذه الأقسامَ جميعَها بالقَسَم بذاته العليَّة جلَّ شأنه، واصفًا ذاته الكريمة بأنَّه ربُّ السَّماوات والأرض ومُدَبِّرُ أمرهما"[3].

التَّدبُّر في المحسوسات المشهودات يُرَقّي إلى اليقين بأعلى الكمالات

فأقسم سبحانه بما له من المخلوقات لِمن وقف مع المحسوسات المشهودات، ثُم تَرقَّى إلى أعلى الدَّرجات، فانكشف ما له من الكمال

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 173.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 173.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 512.

انكشافًا تامًّا، وعلم أنَّ في خزائنه سبحانه كلَّ ما أخبرَت عنه به الرُّسلُ مِن وعد ووعيد، فأقسم بنفسهِ الأقدس لكن بصفةٍ مألوفةٍ، فقال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[1].

لطيفةُ القسَم بعنوان الرُّبوبيَّة:

الرَّبُّ سبحانه هو المُعطي والمُجازي

التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة في جملة القسم: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ داعم لأمرَين: أمرِ الرِّزق في الدُّنيا، وأمرِ المُجازاةِ والمُداينة في الآخرة، فالرَّبُّ هو المعطي والمانح والمُرَبّي، والسّياق له اتِّساق بارعٌ مع المَعْنى، داعمٌ للغرض.

قَسَمُ الله تعالى رحمةٌ منه سبحانه بعباده

والقسَم في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ يعالج ضَعْفَ النُّفوس غير الموقنة، ويُثَبِّتها على طريق الثِّقة في تحقيق الموعود، ويزيد النُّفوس الموقنة يقينًا واستبشارًا، والنُّفوس المهزوزة تثبيتًا، وخاصَّة في لحظاتِ ضَعْفِها البشريِّ إزاء مُلِمّاتِ الحياة وحدثان الأزمان، فَقَسَمُ الله تعالى رحمةٌ منه سبحانه بعباده، ومراعاةٌ لبشريَّتهم.

دلالةُ الإضافة في ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ﴾:

الرَّبُّ الرَّحيم سبحانه هو الَّذي أفعم الأرض والسَّماء بالخيرات والبركات

في إضافة (ربّ) إلى ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ دعمٌ لقضيَّة الوفاء بالوعد، فالسَّماء والأرض خزائن الخيرات، ومنبَعُ البركات؛ إذِ السّماء مسكَنُ الملأ الأعلى، وفيها الجِنان، والأرض مستودَعُ الأرزاق هنا في الدُّنيا، والمخاطَبون منها أكلوا، وشربوا، ورأوا صنوفَ المتاع من طعامٍ وفواكِهَ، ومن أنهار وبحارٍ، ولآلئ وأصداف... إلى غير ذلك.

بلاغةُ حشدِ التَّوكيدات في التَّركيب:

لام التَّوكيد في الخبر ﴿لَحَقٌّ﴾ يتناغَمُ عطاؤُها مع عطاء القَسَم

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 459.

يجب ألّا يَبقى في النُّفوس شكٌّ يتعلَّق بقضيَّة الأرزاق والآجال، وأنَّها لله وحده

﴿فَوَرَبِّ﴾ والتَّوكيدِ بـ (إنَّ) في ﴿إِنَّهُۥ﴾، واسميَّة الجملة، والتَّشبيه المُبين بعد الخبر وصفًا له، كلُّ ذلك يتآزر على دَعْم هذه الحقيقة الرَّبّانيَّة في النُّفوس البشريَّة، دعْمًا لا يُبقي لِشَكٍّ في القلوب مكانًا، ففي حشد ذلك العددِ المتنوِّع من عوامل التَّوكيد قَطْعٌ وبَتٌّ في قضيَّتَي الرِّزق الدُّنيويِّ والأخرويِّ قطعًا وبتًّا حازمَيْن، لا مجال معهما لاهتزاز النَّفس، ولا لتعويلها فيهما جميعًا على غير الله تعالى، فلا أحد يملك لأحدٍ ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

بيانُ مرجعِ الضَّمير المنصوب في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾:

تعدُّدُ مرجع الضَّمائر القرآنيَّة يمنح الأسلوب غزارةً في الدَّلالة

الضَّمير المنصوب في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ يرجع إلى أقرب مذكور، أي: قضيَّة الرِّزق بِشِقَّيْه: الدُّنيويِّ والأخرويِّ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾، وقد طويا هنا في الضَّمير لتوفير العناية على الخبر ﴿لَحَقٌّ﴾ وداعمه من التَّشبيه وتوكيداته، ويحتَمِلُ أن يعودَ الضَّمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ إلى ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾، فيكون فيه رَدُّ العجز على الصَّدر؛ لأنَّه ردٌّ على قوله أوَّلَ السّورة: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥﴾ [الذاريات: 5]، وانتهى الغرض[1].

ويجوزُ أن يرجعَ الضَّمير إلى القرآن الكريم، أي: إنَّ القرآن حقٌّ، وعلى هذا فقوله: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾، أو يرجعَ إلى الدّين، الواردِ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾ [الذاريات: 6].

ويحتَمِلُ أن يعودَ إلى اليوم المذكور في قوله: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾، يدلُّ عليه وصفُ الله تعالى اليومَ بالحقِّ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ [النبأ: 39]، أو هوَ راجع إلى القول الَّذي يقالُ: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾[2]، وهكذا يَمنح تعدُّدُ مرجع الضَّمائر القُرآنيَّة سياقَه وأسلوبَه غزارةً في الدَّلالة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 355 بتصرف.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 172 بتصرف.

دلالةُ الإخبار بـ ﴿لَحَقٌّ﴾، ولطيفة تنكيره:

كلُّ ما أخبر الله تعالى به حقٌّ لا يتخلَّف

في الإخبار بمفردة الحقِّ دون غيره في قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ مُؤازرةٌ لِعناصر التَّوكيد الكثيفة في ثبوت مراجع الضَّمير كلِّها؛ لأنَّ "الحقَّ هو الشَّيء الثَّابت الَّذي لا يتغيَّر"[1]، فالرِّزق حقٌّ، وموعود الله تعالى في الآخِرَةِ حقٌّ، والقرآن حقٌّ... إلى غير ذلكَ.

وفي تنكيرِه إشارةٌ إلى تعظيمِه وتفخيمِه، وأنَّه ثابتٌ غاية الثَّبات لا يَحْتَمِلُ التَّخلُّف بحالٍ.

دلالةُ التَّعبير بلفظ المُماثلة في ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ﴾:

عَـقْـدُ التَّشبيه بـمـادَّة المُماثلة الاسميَّة يواكب الـسّـيـاقـات المُتلئة

﴿مِّثْلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ اسمٌ يدلُّ على التَّشبيه، وتتَّسق دلالة المماثلة به مع القَسَم، ومع أدوات التَّوكيد، ومع الإخبار بلفظِ (حق)؛ لأنَّه يدلُّ على تمام المماثلة، لا مجرَّد الإلحاق والتَّشبيه.

فزَخَمُ معنى ﴿مِّثْلَ﴾ وقوَّةُ فحواه يواكِبان هذا الأسلوب العامر والتَّركيب القويَّ؛ لذلك لا تصلُح الكافُ ولا مشتقّات المُشابهة بدلًا منه هنا، كما لو قيل في غير القرآن الكريم: فوربِّ السَّماء والأرض إنَّه لحقٌّ كما أنَّكم - أو شِبه ما أنَّكم - تنطقون.

دلالة الحاليَّة في ﴿مِّثْلَ﴾:

في الـنُّـطـق من الخفَّة والـهِـمَّة والـحـيـويَّـة مـا لـيـس في السُّكوت

دلالة الحاليَّة في قوله تعالى: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾، أي: مثل نُطْقِكُم، تَعْقِدُ المماثلة على حالِ النُّطق لا السُّكوت؛ لِما في حالِ النُّطق من حيويَّةٍ ونشاط، وهِمَّة وخِفَّة تؤهِّلها لقياس هذا المعنى الخطير بها، أمّا حالُ السُّكون؛ فشبيهة بحالِ الموتِ وفُقدان الحياة، فهي خاليةٌ مِن ضجيج النُّطق ونشاطه وحيويَّته.

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 1/ 321.

توجيهُ القراءات القرآنيَّة في ﴿مِّثْلَ﴾:

التَّكامُلُ الدَّلاليُّ بين القراءاتِ

قُرِئَ ﴿مِّثْلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ بالرَّفع والنَّصب، فقرأها الجمهور بالنَّصب: ﴿مِّثْلَ﴾، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ العاشرُ وشعبةُ عن عاصم بالرَّفع: ﴿مِّثْلُ﴾[1]، فمن قرأ بالرَّفع؛ فهو صِفَةٌ لـ (حقّ)، والمعنى: إنَّه لحقٌّ مِثْلُ نطقِكُم، ومن نَصَب؛ جعَل: ﴿مِّثْلَ﴾ مع ﴿مَآ﴾ بمنزلة شيءٍ واحد.

وقال الفرّاء: مَن نَصَب ﴿مِّثْلَ﴾ مع ﴿مَآ﴾ جعله في مذهبِه مصدرًا[2]؛ ليُفيدَ التَّوكيدَ، على معنى: (إنَّه لحقٌّ حَقًّا مثلَ نُطْقِكُم)[3].

دلالة ﴿مَآ﴾ في قوله: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾:

البلاء موكَّلٌ بالمنطق

﴿مَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ مصدريَّة، أي: مثل نُطقكم، أو مثل حالِ نُطقكم، وفي إيثارها على المصدر الصَّريح إتاحةٌ لدلالاتِ جُملَة الصِّلة ﴿أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ ممّا سيأتي.

ويجوزُ أن تكون ﴿مَآ﴾ موصولَةً، ويكون المعنى: إنَّه لحقٌّ مثل الَّذي تنطقونه، أو تنطقون به، أي: مثل كلامكم في الرِّزق وظنِّكم فيه، وارتِقابِكُم له كثرةً وقِلَّة، ووجودًا وعَدَمًا، فـ "إنَّ البلاء موكَّل بالمَنْطِق"[4]، فيكون ذلك دعوةً لإحسانِ القول والظَّنِّ واليقين في إكرام الله تعالى، والتَّحدُّث بالبشائر، وارتقاب الخير العميم.

معنى (أنَّ) في قوله تعالى: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾:

(أنَّ) في قوله تعالى: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ مصدريَّة، تُؤَوَّل مع الفعل بعدها بمصدر، والتَّقدير: إنَّه لحقٌّ مثل نُطقكم، وهي من ثمرات إيثار التَّعبير بـ ﴿مَآ﴾ دون المصدر الصَّريح.

---

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 377.

(2) الفراء، معاني القرآن: 3/ 85، والواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 176.

(3) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 54.

(4) السجستاني، المعمرون والوصايا، ص: 53، قاله عبيد بن شرابة الجرهمي لمعاوية بن أبي سفيان تعليقًا على قصّة حكاها له شرابة.

بلاغةُ التَّشبيه بالنُّطق:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ يُشبِّه الله تعالى تَحَقُّقَ ما أخبر عنه، بتحقيق نُطق الآدميِّ ووجوده، وهذا كما يقول: إنَّه لحقٌّ كما أنَّك تقول ههنا، وإنَّه لحقٌّ كما أنَّك تتكلَّم، والمعنى: أنَّه في صِدقه ووجوده كالَّذي تعرِفُه ضرورةً[1]، فكما أنَّكم لا تَشُكّون فيما تَنْطِقون؛ فعلى ذلك لا تَشُكّون في أمر السّاعة وقيامها وكونِها، كما يُقال: هذا ظاهر بيِّنٌ كالنَّهار.

في التَّشبيه زيادةُ تقريرٍ لوُقوع الوعيد

ويحتمل أن يقول: إنَّ مَن قَدر على إنطاق هذه الألسُن وتكليمها حتّى تُفهم منها حاجَتُهم - وهي قطعة، وليس فيها شيءٌ من آثار النُّطق والكلام؛ إذ يكون مثلهُ للبَهائم، ثُمَّ لا يُفهم منه ذلك، ولا يكون منه النُّطق - قادرٌ على البَعْثِ والإعادة؛ إذ هذا في الأعجوبةِ أكثَرُ وأعظمُ من ذاك[2].

ولطيفة التَّشبيه بالنُّطق أنَّه "عنده في غاية الوضوح، ولا يُمكِنُ أن يقع فيه من اللَّبْسِ ما يقع في الرُّؤية والسَّمع، بل النُّطق أشَدُّ تخلُّصًا من هذه"[3]، ففيه "زيادةُ تقرير لوُقوع ما أوْعَدوه، بأن شُبِّه بشيء معلوم كالضَّرورة لا امتراء في وقوعه، وهو كونُ المخاطَبين يَنْطِقون"[4]، و"كما أنَّ كلَّ إنسان ينطِقُ بلسان نفسِه، ولا يُمكِنُه أن ينطِق بلسان غيره؛ فكذلك كلُّ إنسان يأكُلُ رِزْقَ نفسِه، الَّذي قسم لَه، ولا يمكنه أن يأكل رزقَ غيره"[5].

دلالة صوغ ﴿تَنطِقُونَ﴾ مضارعًا:

تجدُّدُ المضارَعة يواكب تجدُّد فاعلِها وحيويَّته

في صوغ فعل النُّطق ﴿تَنطِقُونَ﴾ مضارعًا براعةُ تَطْمينٍ، أي:

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 177.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 383.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 176.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 355.
(5) الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن: 24/ 537.

"تنطقون نطقًا مجدَّدًا في كلِّ وقت مستمرًّا، ليس هو بخيالٍ ولا سحر"[1]، ففي النُّطق حركةٌ بخلاف السُّكوت، والحركة تقتضي الحيويَّة والتَّجدُّد والنَّشاط الَّذي يلائم تجدُّد النُّطق المتكرِّر.

والمضارَعَة مِن ثمرات المصدر المُؤَوَّل - كما سبقَت الإشارة - ولو عُبِّر بالمصدر الصَّريح: مثل (نُطقكم)؛ لانطفأ زخَم التَّشبيه؛ لأنَّ المصدر في (نطقكم) سَيَدُلُّ حينئذٍ على نُطْق واحد، ولو مرَّة، فيموت به المعنى، أمّا المضارَعة في ﴿تَنطِقُونَ﴾؛ فتُضْفي على المعنى حياةً وجدَّةً وتجدُّدًا يليق بالمقام، وقد يَنْعَكِسُ على الرِّزق في المُشَبَّه بدلالةِ التَّجدُّد والتَّنوُّع والزَّخم الكثير، فـ"اجتُلب المضارع في ﴿تَنطِقُونَ﴾ دون أن يقال: نُطقُكم؛ ليفيد التَّشبيهَ بِنُطقهم المتجدِّد، وهو أقوى في الوقوعِ؛ لأنَّه محسوس"[2].

نكتةُ إيثارِ النُّطق دون غيره من حالات الإنسان:

مِن أخصِّ صفاتِ الإنسانِ النُّطقُ؛ لدلالتِهِ على الإدراكِ

اختارَ النَّظمُ الكريم التَّشبيهَ بالنُّطْقِ في قوله تعالى: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾؛ لأنَّه "صفة دالَّة على وجود الإنسان؛ لأنَّ المنطق هو الصِّفة المميِّزة للإنسان عن عالم الحيوان، ولأنَّ النُّطق كذلك يدلُّ على أنَّ وراءه إنسانًا ذا حسٍّ وإدراك، وأنَّه إذا غابت عنه المُحَسّات والمُدْرَكات؛ فلن يغيبَ عنه الإحساس بوجودِه، وإدراك أنَّه موجود"[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإبصار والنَّظر والمشاهدة:

البَصَرُ حسُّ العين، والنَّظر إدراك الشَّيء، والمُشاهَدَةُ المُعايَنَةُ والحُضور

البَصَر: حِسُّ العَيْنِ[4]، والنَّظَر: تأمُّل الشَّيء بالعين، وإدراكه بواسطة القدرة البصريَّة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 459.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 356.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 513.
(4) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (بصر).

﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحجر: 16][1]، والمشاهدة: المعاينة والحضور، يُقال: شهِده شُهودًا، أي: حَضَرَه، فهو شاهدٌ، وقومٌ شُهودٌ، أي: حُضورٌ[2].

والعلاقة الدَّلاليَّة بين الإبصار والنَّظر والمشاهدة تقوم على اشتراكها في دلالة الرُّؤية بالحاسَّة البصريَّة، لكنَّها تختلف في الدِّقَّة والاستعمال بحسَبِ السّياق والمقامِ.

النُّطق والتَّكلُّم والتَّحدُّث:

النُّطْقُ: الأصواتُ المُقَطَّعة الَّتي يُظْهِرُها اللِّسانُ، وتَعيها الآذانُ، وهو خاصٌّ بالإنسان[3]، والتَّكلُّم: التَّحدُّث، يُقال: تكلَّم الشَّخصُ، أي: تحدَّث[4]، والتَّحدُّث: إخبار غيرك والتَّكلُّم معه، يقال: حدَّثه الشَّخصُ بكذا، وحدَّثه عن كذا، أخبره، وتكلَّم إليه[5].

النُّطق إخراجُ الأصوات، فهو أعمُّ، والتَّكلُّم التَّحدُّث مطلقًا، والتَّحدُّث الكلام إلى آخرَ

وأمّا العلاقة الدَّلاليَّة بين النُّطق والتَّكلُّم والتَّحدُّث؛ فتقوم على اشتراكِها في دلالة إخراج الألفاظ والأصوات للتَّعبير عن المعاني، لكنَّها تختلف في الدِّقَّة والمجال الاستعماليِّ.

فالتَّرتيب الدَّلاليُّ يكونُ النُّطق أعمَّ وأوَّل مراحل التَّعبير الصَّوتيِّ، والتَّكلُّم إنتاج كلام مفهوم، وأمّا التَّحدُّث؛ فنقلُ الكلام والتَّخاطُب بقَصْدِ الإفهام والمشاركةِ.

(1) عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (نظر).
(2) الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (شهد).
(3) الراغب، المفردات: (نطق).
(4) عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (نظر).
(5) عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (حدث).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والخمسون،
سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والخمسون، سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 57 ، 802 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-650-27-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 57 : المجلد السابع والخمسون، سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-650-27-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4331956 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"